الفصل الخامس

الهند

كان الجنس السامى يسكن أودية أنهار الهند الخصيبة منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد ، وكانت له ثقافة استطاع العلماء الكشف عنها وعن كنوزها التى قدمتها للبشرية جمعاء . ويتحدث المؤرخون عن غزوات آرية اتجهت من وادى الدانوب فى أوروبا عبر البسفور إلى بلاد ما بين النهرين ، ثم فارس ، ثم إلى وادى البنجاب ، وكان ذلك فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . ومما هو جدير بالذكر أن حضارة الغزاة وثقافتهم لم تسم إلى ثقافة وحضارة السكان الهنود . ويشير المؤرخون إلى كثرة آلهة الهنود حتى إنهم يطلقون عليها أرض الآلهة ، وإن لم تفق آلهتهم عدداً وتعقيداً آلهة قدماء المصريين .

وقد حمل الغزاة معهم كتاب « الفيدا » حيث فرضوا تعاليمه بما فيها من صور عقلية واجتماعية لا تتفق مع الهنود الأصليين . وكلمة الفيدا تعنى العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول ، والكتاب يحوى أوراداً وأناشيد وطقوساً للضحايا والقرابين إلى جانب احتوائه على التعاويذ السحرية . وفى الفيدا نجد آلهة كثيرين ، فمنهم قاتل التنين الجبار ، ومنهم الشمس بما تضفيه على الكون من دفء ونعيم وخصب ، ومنهم أيضاً جاما إله الموت . وأندرا كبير الآلهة ، وفايو الريح ، وديوس أى السماء أو الرب . ويصل عدد الآلهة حوالى ثلاثين إلهاً ، ويجد المؤرخون علاقة بين آلهة الفيدا وآلهة الإلياذة والأودسا ، فالآلهة تتفق جميعاً فى البساطة والطفولة ، وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى وفى الخلو من الحقد وسوء النية والأنانية والوحشية المتأصلة فى آلهة الأشوريين أو البابليين ، وهم يتفقون كذلك فى القرب من صف الإنسانية كاستعانتهم ببنى البشر فى الوصول إلى غاياتهم ثم مكافأتهم إياهم بحمايتهم لهم وعطفهم عليهم(١).

---

(١) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ص ٩٢ ــ ٩٤ .

وتتحدث الديانة الفيدية عن بدء الخلق فتقول إن الإله براجاباتى كانت له ألف رأس وألف عين وألف رجل ، وقد اشتاق إلى الكثرة فأجابته بقية الآلهة إلى أمنيته ، وضحوه وقطعوه إرباً ونثروا أجزاءه فى جميع البقاع حتى تكون العالم كله من هذه الأجزاء . ولكن الأجزاء المتفرقة اشتاقت وتشتاق إلى التجمع والوحدة . وهذا هو السر فى التجاذب الخفى الموجود فى جميع عناصر الكون. وليتم التجمع يضحى بنو البشر باللحوم المشوية وبالخمر المعتق وباللبن والخبز والأعشاب عن طريق نار مقدسة يتولى الكهنة إشعالها .

ولكن بعد التجمع يحدث انقسام وتفكك مرة أخرى بعملية خلق جديدة يقوم بها الإله بنفسه رغبة منه فى إنشاء كون وتكثير وحداته . وبراجاباتى هو الكل ، هو الذى كان ، وهو الذى سيكون ، ولما كان براجاباتى هو قربان هذه التضحية فقد نشأ من ذلك العالم والموسيقى والأغانى والتعاويذ السحرية ، ومنه كذلك نشأت الخيول والضأن والماعز وكل الحيوانات . ثم إن القمر نشأ من نفسه . والشمس من عينه وأندرا من فمه ، ومن سرته نشأت السماء الوسطى ، ومن رأسه نشأت السماء العليا ، ومن قدميه نشأت الأرض .. وهكذا خلق العـــالم .

هذا وفى شرح آخر لخلق العالم يعزى إلى خالق أول قهار (١): « .. حقاً إنه لم يشعر بالسرور ، فواحد وحده لا يشعر بالسرور ، فتطلب ثانياً ، كان فى الحق كبير الحجم حتى ليعدل جسمه رجلا وامرأة تعانقا ، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة ... وهذا الفراغ تملؤه الزوجة ؛ وضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر ؛ وسألت نفسها الزوجة قائلة : « كيف ستطاع مضاجعتى بعد أن أخرجنى من نفسه ، فلأختف » ، واختفت فى صورة البقرة ، وانقلب هو ثوراً ، فزاوجها ، وكان بزواجهما أن تولدت

---

(١) نفس المصدر : ص ٩٥ ــ ٩٦ .

الماشية ؛ فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ثم أصبحت هى حمارة فأصبح هو حماراً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لهما ذوات الحافر ، وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً ، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لهما الماعز والخراف ، وهكذا حقاً كان خالق كل شيء ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ فى التدرج أسفله إلى حيث النمال ، وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلا : « حقاً إنى أنا هذا الخلق نفسه ، لأنى أخرجته من نفسى من هنا نشأ الخلق » .

وهكذا توضع بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح ، فالخالق وخلقه شيء واحد . وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد ، فكل صورة من الكائنات كانت فى يوم ما صورة أخرى .

وقد استخرج كهنة من الفيدا ديانة جديدة أطلقوا عليها « البراهمانية » نسبة إلى براهمان .والكلمة تعنى « الكينونة » . وقد بدأ الكهنة هذه الديانة بتعقيد الطقوس البسيطة المعروفة فى الفيدية ، فقالوا مثلا إن الضحايا لا تقبل إلا إذا قدمت على أيدى جمعية كهنوتية مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورئيس يشترط فيه أن يفوق زملاءه علماً وحكمة . ثم بدأ الكهنة يستولون على الطقوس الدينية ويقصرونها على أنفسهم شيئاً فشيئاً مكونين (طبقة) لها سمات ومميزات جعلتها أسمى عناصر الأمة وصاحبة السيادة فيها . بل أن الكهنوتية أصبحت وراثية .

وهكذا بدأت الطبقات تظهر فى الهند ، وأرقاها الكهنة (براهمان) ، وتليها طبقة كشاتريا وهى طبقة الجند ، ثم طبقة الفايسيا وهى طبقة التجار الأحرار وأصحاب المهن والزراع ، ثم طبقة الصناع وإسمها شودر وهم يشملون معظم السكان الأصليين ، ويقال إن طبقة الكهنة خلقت من رأس براهمان . والجند من منكبيه وذراعيه ، أما العمال والزراع فخلقوا من فخذيه ، وخلقت طبقة الأرقاء من قدميه ، وغنى عن القول إن الاحتمال كبير فى أن يكون الكهنة قد ابتدعوا هذه الأسطورة . وبمرور الزمن تكونت طبقة أدنى من الطبقة الرابعة هى طبقة المنبوذين (الباريا) وقوامها قبائل وطنية لم ترتد عن ديانتها ، وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد على سبيل العقاب .

وأسوأ ما فى الأمر أن الفرد لا ينتقل من طبقة لأخرى ، فبحكم مولده ينتمى إلى طبقة ، ولا يستطيع أن يسمو إلى طبقة أعلى . ولا يتزوج إلا من طبقته . فإذا انتمى فرد إلى البراهمان أو كان كشاترياً أو فايسياً فلا يكلم شودرياً أو يأكل طعاماً لمسته يد منبوذ .

ولغة الهنود الآريين إسمها اللغة السنسكريتية ، وهى أقدم اللغات الآرية ، وبها شبه كبير من الفارسية القديمة والإغريقية واللاتينية والكلتية ومن اللغات السلافية الحديثة .

وقد دخلت الديانة البوذية الهند فى القرن السادس قبل الميلاد ، ومؤسس البوذية هو جوتاما (وله أسماء عديدة آخرها بوذا وهو الذى وصل إلى قمة السمو) وولد حوالى ٥٦٠ ق.م. على حدود نيبال ، وكان والده رئيس قبيلة ، ولكنه زهد فيما حوله من متع ونعيم وارتدى ثياباً خشنة وترك أسرته وهام فى الأحراش . وكان يؤمن أن مصدر الشقاء البشرى ما يثيره الهوى المتولد من الشهوات الجسمانية . ولا خلاص للفرد من هذا السجن المطبق إلا التلاشى المادى الذى لا يتحقق إلا بالزهد والتعفف عما فى الحياة من ملذات وشهوات .

وانسحب تاركاً زوجته وولده إلى جبل آوى فيه تحت شجرة ظليلة بعيداً عن المدنية ومحاسباً نفسه عما أتى من خير وشر ، ومتأملا فى هذا الكون العجيب وأسراره . واستمر فى تأملاته مدة طويلة . ولبث ستة أعوام يحاول أساليب اليوجا — رياضة النفس — ولم يأكل إلا الحبوب والكلأ ، ثم أكل الروث حتى وصل إلى أن كان يقتات على حبة من الأرز كل يوم . ونزع شعر رأسه ولحيته ليعذب نفسه حباً فى عذابها . ونام بين الجثث العفنة ، وعلى الشوك ، وضمر جسمه ضموراً شديداً وبانت عظامه فلم يعد لحم يكسوها . وكان إذا دلك جسمه تساقطت الشعيرات من عليه . ثم اكتشف أن تعذيبه لنفسه قد ولد فيه الشعور بالزهو مما يفسد كل أنواع التقديس وأقلع عن زهوه . وجلس جلسة مستقيمة لا حراك فيها مصمماً على أن يأتيه التنوير وسبح مكفراً ومتأملا فيما يعانيه الإنسان من آلام ، وفى البقاء والفناء . وبينما هو سابح فى تأملاته

ذات ليلة هبطت إلى قلبه المعرفة وأضاءته مشعلة جذوة دفعت المتأمل السابح فى أفكاره إلى الجهر بما جاءته من معرفة . والتف حوله شبان وشيوخ يستمعون إليه وهو فى ردائه الأصفر .

وكان بوذا يستخدم فى نشر تعاليمه طريقة المحاورة والمحاضرة وضرب المثل ولم يدع بوذا أبداً أنه أوحى إليه ، بل عزا لنفسه الاستنارة ، ولم يذكر أن إلهاً كان يتكلم بلسانه ، ويقول إن كل ما يعرفه الإنسان هو إحساساته ، وإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، والعناصر كلها ضرب من الحركة ، والحياة تغير ، هى مجرى دافق محايد فى صيرورة وفناء . وأن الروح أسطورة من الأساطير ، وأن العقل الذى يربط أفكارنا إن هو إلا شبح توهمناه ، وما هو موجود حقاً هو إحساساتنا وإدراكاتنا التى تتكون بصورة آلية فى هيئة تذكرات وأفكار . وتتكون النفس أو الذات من الوراثة والخبرات التى تتم خلال تجارب الحياة ، وهذه النفس غير خالدة .

وما دامت لا روح هناك . فكيف يعود الفرد إلى الحياة ليحاسب على ذنوبه بعد موته ؟ لم يعطنا بوذا إجابة شافية على هذه المشكلة ، وإن كان السائد بين الهندوس فكرة تناسخ الأرواح وانتقالها من جسد إلى جسد . ثم سلم بوذا بأن الهواء يدخل شهيقاً ثم يخرج زفيراً ويلوح أنه سلم تسليماً بعجلة التناسخ ثم فكر فى كيفية الفرار من هذه العجلة الدوارة ، أى كيف يحقق الإنسان لنفسه النرفانا فى الحياة الدنيا والفناء التام فى الحياة الآخرة .

النرفانا هى ، وتتحقق ، فى الانتصار على الشهوة ، ولو أن وصف النرفانا أمر غير مستطاع صياغته فى كلمات لأننا لم نمر بخبرتها(١) . وتعنى كلمة نرفانا « منطفىء » كما تطفأ النار ، ولكن الكتب البوذية تستعملها فى معنى حالة من السعادة يصل إليها الفرد بابتعاده عن الشهوات الجسمية ، إلى جانب تحرير الفرد من عودته إلى الحياة وانعدام شعور الفرد بفرديته ، واتحاد الفرد بالله ثم فردوس من السعادة بعد الموت .

---

(١) Burtt : op. cit., pp. 111-113

التربية الهندية :

كان للدين والنظام الطبقى أثر واضح فى تشكيل نظام التربية بالهند ولم تخضع المدارس ونظم التعليم لنظام عام يمكن أن نطلق عليه سيطرة الدولة على الشئون التربوية ، إذ أن رجال الدين من البراهمان وغيرهم كانت لهم سلطاتهم الكبرى والتى كان من شأنها أنها أدت إلى احتكارهم الكتابة وتعليمها . وقصرها على عدد قليل من الهنود حتى يضمنوا حفظ أسرار النصوص المقدسة ولا يجعلوها مشاعاً للجميع(١) .

وقد تنازل البراهمة عن بعض احتكاراتهم فى التعليم فسمحوا لطبقة أخرى أن تتعلم ، ثم سمحوا للطبقة الثالثة أيضاً ثم الرابعة ، ولكنهم حرموه على طبقة المنبوذين ، وكان لكل قرية مدرسة ومعلمها ، وقد لجأ بعض المدرسين إلى التعليم فى الهواء الطلق . أو فى منازلهم أو أماكن مسقوفة . وكان التلاميذ يدخلون المدرسة فى سن الخامسة إلى الثامنة فى الأشهر الممتدة من سبتمبر إلى فبراير . ويشتمل المنهاج فى محتواه الأساسى على تعليم دينى . وفى ثناياه يتعلم التلاميذ حفظ وشرح نصوص الفيدات .

وكان التلاميذ يبدأون تعلم الكتابة على الرمل حتى إذا تقدموا بدأوا يكتبون على أوراق النخيل بقلم ذى سن حديدى ، ثم على ورق الشجر بالحبر(٢) .

واشتمل منهاج التعليم على الحساب والكتابة(٣) ، ولكن كان الهدف الأساسى فى هذا التعليم المغلف بالغلاف الدينى هو زرع الأخلاق القويمة ،

---

(١) Venkateswara, S.V., Indian Culture Throughout the Ages, 1 : Education and the Propagation of Culture, pp. 83-85

(٢) Laurie, S.S. : Historical Survey of Pre-Christian Education, p. 176.

(٣) يلاحظ أن التربية النظامية فى الهند اعتمدت اعتماداً يكاد يكون كاملا على الكتب .

ولذلك فكان النظام صارماً وإن لم يلجأوا إلى وسائل العقاب البدنى بل إلى الحرص الشديد على تكوين عادات السلوك الصالح منذ الصغر .

وبعد سن الثامنة يعهد بالتلميذ غالباً إلى « شيخ » هو أحد رجال الدين ويصبح التلميذ جليسه يتلقى عنه « الشاسترات الخمس » وهى : النحو والفنون والصناعات والطب والمنطق والفلسفة . وكان للأستاذ على تلميذه حقوق ، فالتلميذ تابعه وخادمه ، يؤدى له كل الخدمات حتى أحقرها . ويبقى التلميذ مع أستاذه حتى يصل إلى حوالى العشرين من عمره ، ثم يطلق إلى الدنيا مسلحاً بنصح رشيد ، هو أن التعليم يأتى ربعه من المعلم ، وربعه من الدراسة الخاصة ، وربعه من الزملاء ، وربعه من الحياة .

وكان من حق التلميذ عندما يبلغ السادسة عشرة أن يترك الأستاذ لينتقل إلى إحدى الجامعات الكبرى ، وهذه كانت قاصرة على البراهمان ، ولكن سمح للطبقة التالية بدخولها ، وفيها يتعلم الطلبة العلوم والفلسفة والقانون والرياضيات والطب والشعر إلى جانب التعاليم والنصوص الدينية . ونظراً لأن الهنود كانوا يربون ويعلمون لا من أجل الأمور العملية ولكن للمثاليات ، فقد تشبعت ثقافتهم بالفلسفة والدين ، ومست العلم والفن والتجارة مساً خفيفاً .

ويظهر أن الدولة تدخلت فى التعليم العالى ، فيحدثنا المؤرخون أن جامعة الاندا ، وهى أشهر الجامعات بالمعاهد البوذية العالية ، أنشئت بعد موت بوذا بزمن قصير ، وخصصت لها الدولة دخل مائة قرية ليصرف منها على شئون الجامعة . ويقال إنه كان يؤمها عشرة آلاف طالب ، وتحوى مائة قاعة للمحاضرات ، إلى جانب المكتبات الكثيرة الضخمة ، ومساكن للطلبة ، ولها مراصد عالية تبلغ السحاب ارتفاعاً . وكان المستوى العلمى فيها عالياً جداً ، لدرجة أن الأجانب من البلاد المجاورة ومن ذوى العلم كانوا لا يستطيعون مجاراة الطلبة فى إطلاعهم ومناقشاتهم فيعترفون لهم بالذكاء والغزارة الدراسية ، حتى أن أحد علماء الصين ممن زاروا هذه الجامعة أعجب بها ، ومكث فى ربوعها خمس سنوات يناقش الطلبة ويجادلهم ويستمع إلى الأساتذة الجهابذة ، ويدلل على

صعوبة الدراسة بها أن عدد الذين كانوا يرسبون فى الإمتحانات أكثر من عدد الناجحين بالضعف .

وكان ينظر إلى الخلق والسلوك نظرة تبجيل وحزم ، فلا يسمح للطالب بالتحدث إلى امرأة أو حتى رؤية امرأة ، أما من يقترف الزنا منهم فعليه كفارة عام كامل يلبس فيه جلد حمار ، ذيله مرفوع إلى أعلى ويجوب الطرقات مستجدياً مادأ يديه ومعلناً لكل من يقابله عن خطيئته . وكانت الدراسة تستمر فى هذه الجامعة اثنتى عشرة سنة . ولم يكن هناك حد أقصى فقد يموت الشيخ طالباً فيها .

وهدفت التربية البراهمانية إلى التحكم فى العقل والإرادة والجسم . فكان الجسم يبقى على جلسة واحدة مدة طويلة ، ويتعود الطالب التنفس بطريقة معينة تختلف حسب ساعات النهار وحسب الغرض . وكان هذا التحكم ضرورى للسيطرة على النزعات ، والرغبات . وكان النظام غاية التربية ، وليس وسيلتها لغاية . فالدراسة والتعليم كانا يرميان إلى اكتساب عادات التفكير والإحساس والتحكم فى الجسم والسلوك ، وإلى التضحية وإنكار الذات(١) .

وبعد عام ٥٠٠ ق . م . سمح بالعقاب البدنى فى المدارس ، وكان التلاميذ يضربون بالعصى أو بالحبال ، وقد ارتضى قانون مانو Manu (وهو أهم القوانين وأقدمها) العقاب البدنى غير أن ، المدرسين عارضوا فى ضرب التلاميذ الذين يزيد سنهم عن ستة عشر عاماً . على أن مجرد السماح بالعقاب البدنى دليل على أن بعض التلاميذ لم يسموا إلى المستوى الروحى اللائق ، وكانت أخلاقهم دون ما يجب أن يكونوا عليه .

أما عن تنظيم المدارس ، فقد كانت العادة أن يبدأ الطفل دراسته فى المدرسة بعد أن تجرى له المراسيم الدينية ، وكان أولاد الطبقات العليا يتلقون تعاليمهم الدينية والخلقية من أمهاتهم ، وقد أقرت قوانين مانو هذا الاتجاه . على

---

(١) Cultural Heritage of India, Sri Ramakrishna Century Memorial, Belur Math., 1, 188.

أن بعض الأولاد كانوا يتلقون المبادىء الأولية للدين والخلق والكتابة على يد معلم خاص وذلك قبل إجراء المراسيم الدينية لهم ، وهؤلاء الأولاد من طبقتى الكشاتريا والفايسيا ... ويتمثل أثر النظام الطبقى فى أن أطفال هاتين الطبقتين كانوا يدخلون مدارس البراهمان وأعمارهم تزيد عن أعمار أطفال البراهمان بثلاث أو أربع سنوات ، فالمفروض أن الطفل البراهمانى مميز بحكم الوراثة عن غيره من أطفال الطبقات الأخرى .

وقد تخصص المدرسون البراهمان فى تدريس مختلف تعاليم الفيدا ، وقد علمنا أن الفيدا يحتوى على : الأوراد ، والأناشيد ، والطقوس للضحايا والقرابين ، والتعاويذ السحرية ، ويحتاج كل قسم من هذه الأقسام الأربعة إلى اثنى عشرة سنة لاستكمال دراسته . ومعنى ذلك أن الدارس احتاج إلى ثمان وأربعين سنة لاستكمال دراسة الفيدا . وعندما سمح لطلبة طبقتى الكشاتريا والفايسيا دخول المدارس الفيدية ، ولأنهم كانوا يتزوجون فى سن العشرين ، ولأنهم لا يدرسون بنفس التعمق الذى يدرسه أفراد طبقة البراهمان الذين لا يفوقهم أحد ، فقد اقتصرت الدراسة على الفيدا ، وقدمت لهم موجزة(١).

هذا ، وقد اتخذت مدارس البراهمان عبر القرون أشكالا مختلفة منها :

مدارس الجوروس Gurus : وفيها اتخذ بعض الكهنة التدريس مهنة لهم ، وكان الكاهن هو المعلم الوحيد فى المدرسة . وانتشر هذا النوع من المدارس فى ربوع الهند ، وهى مدارس خاصة يؤسس كل منها الجوروس . وعندما يتزايد عدد التلاميذ فى المدرسة يعهد الجوروس إلى بعض تلاميذه النابهين الكبار بمساعدته فى التدريس .

مدارس الباريشاد Parishads : والباريشاد تعنى جمعاً من البراهمان المثقفين لهم السلطة فى الفتوى الدينية والتربوية ، ويجب أن يكون فى هذه الجماعة متضلعون فى الفيدا وغيره من الكتب الدينية الكبيرة ، وتشرف

---

(١) Waters, T. On Yuan Chuang's Travels in India, 11, pp. 164.165.

الجماعة على مركز تعليمى يفد إليه الطلبة من أنحاء متفرقة . ويقال إن جامعات البراهمان تطورت من هذه المراكز .

مدارس التول : وقد انتشرت مدارس التول فى المراكز الدينية والسياسية ، والتول مدرسة ذات حجرة واحدة ومدرس واحد محاطة بأكواخ من الطين يعيش فيها الطلبة . ويشتمل منهاج مدرسة التول على عديد من المواد والدراسات وخاصة فى القانون والمنطق . ولم يزد عدد الطلبة فى مدرسة التول عن ٢٠ طالباً ، والدراسة بالمجان حيث كانت هذه المدارس تعيش على هبات من الموسرين ، وهذه كانت كافية حتى لطعام وكساء الطلبة ، ومن الجدير بالذكر أن تواجد مجموعة من التول فى مركز واحد كان يكون جامعة فى شكلها .

كليات الغابات : وهذه خلفت الباريشاد ، وكانت تنشأ فى الغابات . وتتكون مبانيها من أكواخ طينية يسكنها الطلبة والأساتذة . ولا يحوى الكوخ سوى وعاء الماء وحصيرة للنوم . وقد اشتهرت هذه الكليات حتى وصلت إلى أسماع ملوك الهند الذين أغدقوا عليها الهبات وجاراهم فى ذلك الأمراء وأفراد من الرعية . وقد أصبحت هذه الكليات مراكز للتأمل الفلسفى والدراسة الأدبية العالية .

مدارس البلاط : غالباً ما كان الملوك والأمراء يحيطون أنفسهم بجماعات من ذوى العلم والفن . وفى البلاط الملكى كانت تدور مناقشات عن الدين والفلسفة والنحو والأدب والعلم والفن . وقد اشتهرت هذه المدارس بتفوقها فى الفلسفة .

المدارس الخاصة : وهذه نشأت حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، وقد تخصصت كل مدرسة بمادة معينة حيث زادت المعرفة فى ذلك الوقت وأصبح من المستحيل أن يلم بها كلها فرد واحد . ومن بين هذه مدارس للنحو ، وأخرى للأدب ، وثالثة للقانون ، ورابعة للفلك ، وخامسة لطقوس تقديم الضحايا ، وسادسة للمنطق ، وسابعة للفلسفة .

جامعات البراهمان : ولعل أشهرها جامعة بنارس وجامعة ناديا ، ويقال أن الإسكندر الأكبر المقدونى فى غزوته للهند استمع إلى فلاسفة الهنود فى واحدة من هذه الجامعات فى تاكساجيلا ، وفى نفس الجامعة كتب أحد الفلاسفة فى السياسة ما كتبه ماكيافيللى بعده بألف وأربعمائة سنة . ولم يختلف منهاج الدراسة فى جامعات البراهمان كثيراً عنه فى جامعات البوذيين ، فكانت تدرس مواد المنطق والأدب والدين والفلسفة وعلم الكلمات والرياضيات والفلك والطب الذى كانت له أهمية خاصة . غير أن جامعات البوذيين تميزت بما فيها من بعض الدراسات العملية التى أهملت فى جامعات البراهمان .

لم يكن يسمح إلا للبراهمان بحكم القانون بتدريس الفيدا ، ولذلك فقد احتكروا تدريس الدين والفلسفة . وقد قام بتدريس المواد الأخرى مدرسون من طبقات أدنى من البراهمان ولكن تحت إشرافهم . وجدير بالذكر أن المدرسين البراهمان كانوا يخضعون لقوانين صارمة قبل وأثناء قيامهم بالتدريس ولم يتناولوا أجراً من عملهم اللهم إلا بعض الهدايا وما يجمعه طلبتهم من التسول وقد اقتنى بعض المدرسين ممتلكات من تقبلهم هذه الهدايا .

ويصف قانون مانو المدرس المثالى بأنه ذو حديث عذب ، وإذا أهانه شخص لا يرد الإهانة ، ولا يضر أحداً بالقول أو العمل ؛ ولا يستخدم التهديد بعقاب من السماء ليخيف أحداً أو يهدده . ومع ذلك فقد صرح المانو بالعقاب البدنى . والمدرس المثالى مثقف ، عف ، طاهر النفس ، مرح ، رحيم ، مصيب فى قوله ، نموذج يحتذى فى حياته ، راسخ فى معتقداته ، يقنع بالعيش عن طريق التسول ، فيتسول هو ويسرح تلاميذه يتسولون ويجمع ما حصلوا عليه ، وهو لا يمانع فى إعطاء ما عنده من علم لتلاميذه .

المدرسون

كانت معظم المدارس خاصة ، وتعتمد على الهدايا التى يهديها التلاميذ وغيرهم من المهتمين بالدين والفلسفة والعلم والمحسنين ، هذا إلى جانب ما يحصل عليه التلاميذ من التسول ، كما أن بعض المدارس الخاصة ذات الطابع

لمميز تقبلت منحاً من الملوك والأمراء . وقد أوقفت بعض القرى للصرف على مدارس وجامعات البراهمان .

وكان التعليم العام فى الهند القديمة مجانا ، كما حرمت الكتب المقدسة على المدرسين أخذ أجر لقاء عملهم وإلا اعتبر قبولهم الأجر إهانة للسماء ، ويذكر المؤرخون أن السلطات السياسية فى الهند لم يكن لها سلطان على التربية والتعليم ، حتى تعليم الموظفين العسكريين والسياسيين . غير أن قوة الكهنة البراهمان ونفوذهم ضايقت المدرسين الذين لا يخضعون لعقيدتهم . ومع ذلك فقد تمتع المدرسون بحرية إذا قورنت حالتهم عندما انتصرت الهندوسية على البوذية ، حيث حل على المدرسين غير المؤمنين بالهندوسية اضطهاد كبير .

التربية البوذية

لا تختلف التربية البوذية فى خطتها العامة وروحها عن البراهمة اللهم إلا فى اختلافات عن الدين والأيديولوجية الاجتماعية ، ونوع المدارس وتعليم البنات. وتتفق البوذية والبراهمانية فى الاهتمام بالمثل العليا الدينية والخلقية .

ولأن البوذية كانت ثورة على البراهمانية ، فقد أنكر البوذيون على البراهمان أحقيتهم فى الندريس وفى تقديم القرابين والضحايا . وقد تدراسنا شيئاً عن تعاليم بوذا ، وكيف أنها كانت مزيجاً من مثاليات إصلاح اجتماعى وإهمال من الفرد لكل شىء عدا الزافانا . وقد رفض بوذا الفيدا وتعاليمه واعتباره السلطة العليا على الفرد وعلى السلوك الاجتماعى ، كما شجب نظام الطبقات على أساس أنه بناء إجتماعى غير عادل . وكان بوذا بهذا ثائراً جريئاً . ومن ثم دخلت المناهج الآداب البوذية لتحل محل الفيدا كمصدر للحكمة والأخلاق . وظلت اللغة السنسكريتية هى السائدة ، وتبدأ بدراسة النحو الذى يشتمل على قدر كبير من دراسة الأدب .

ويبدأ التلميذ البوذى دراسته فى سن السادسة وينهيها فى حوالى العشرين ، ليبدأ دراسته العليا فى الشعر والإنشاء النثرى والمنطق والفلسفة والميتافيزيقيا

والطب .. الخ . وبعد أن ينتهى من هذه الدراسة قد يلتحق بواحدة من الجامعات البوذية إذا نجح فى إمتحانات القبول الصعبة جداً .

والتعليم على مختلف المستويات يعتمدعلى الاستظهار والحفظ ، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة المناقشة والتناظر والمجادلة فى معانى ما استظهر . وخضع الطلبة لنفس النظم كما كان الحال فى المدارس البراهمانية . أما علاقة التلميذ بأستاذه فتقوم على طاعته وعبادته وأدائه الأعمال حتى الحقيرة منها له .

ونظراً لأن الرهبان البوذيين ارتأوا الحياة المثالية فى النسك ، فقد عاشوا فى أديرة بلغت حوالى ٥٠٠٠ دير فى الهند . وفى كل دير مدرسة كان يؤمها نوعان من التلاميذ : خارجيون (وهؤلاء كانوا يسمون طلبة) ، وداخليون (وكانوا يسمون أطفالا) وكان (الأطفال) قد كرسوا حياتهم للحياة الديرية بما فيها من متطلبات زهدية قاسية . وعلى كل طفل أن يتخير راهباً ليكون مدرسه الخاص . ويتدرج الطفل فى مراحل التعليم حتى يصبح راهباً ماراً بسلسلة من الاحتفالات الدينية من سن الثامنة وتنتهى فى سن العشرين . ثم يبدأ حياة قوامها الدراسة المتعمقة والتفكير والتأمل والتدريس والوعظ .

وتتميز مدارس الأديرة بأنها كانت مفتوحة لكل الطبقات ، ولكن لم يؤمها إلا عدد يسير من شباب البوذيين ، كما أن عدد الرهبان والراهبات لم يكن كبيراً إذا قورن بالملايين العديدة من معتنقى الديانة البوذية.

تعليم البنات

قبل عام ٢٠٠٠ ق . م . درست زوجات البراهمان والنبلاء الفيدا . وبعد هذا التاريخ لم يسمح لهن إلا بمتابعة بعض الشئون المنزلية والأخلاق والسلوك الطيب ، ولم يدرس إلا عدد قليل جداً من النساء دراسات أدبية وهؤلاء كن فى نظر الهنود من أعاجيب الدنيا . وكان الشائع أن مكان المرأة البيت حيث تربى الأطفال وتعنى بشئون المنزل وتحفظ ممتلكات زوجها وترعاها . وخضعت البنات لتعاليم الوالدين ، ومن بعدهما يصبح الزوج معلمها .

وفى ظلال الهندوسية لم يسمح بالتربية النظامية إلا إلى عاهرات المعابد ، واشتملت الدراسة على تعليم الآداب والموسيقى والغناء والرقص والتمثيل والترنيم

فى احتفالات المعابد . كما كن يتدربن على قراءة الأفكار ، وكشف الطالع ، وصناعة العطور ، والتجميل وكذلك كشف المجرمين والجواسيس . وكان يقوم بالتدريس للعاهرات كهنة المعابد .

وقد سمح بوذا بنظام الراهبات ، وكانت أديرة الراهبات أقل عدداً من أديرة الرهبان ، كما كانت تحت إشرافهم ، وتحتل مرتبة أدنى . ويساورنا الشك فى نوع الدراسة التى أعطيت للبنات فى أديرة الراهبات ، ويلوح أنها كانت تشتمل على الفنون المنزلية والديانة والأخلاق .